اولا ، غالبا ما تتعطل اللغة كوسيلة ،(« سدى لغتنا الجديدة ») ، فتتحول الى ما يشبه الاشارات والرؤوس الحادة التي يثقب بها العميان صحائفهم . انها « لغة من نحاس » كما يقول خالد يوسف .

ثانيا ، تطورت الصورة الشعرية كثيرا عما كانت عليه لدى شعراء ١٩٥٨ - ١٩٦٣ ،ولكنها زادت ابهاما وتعقيدا بتحولها من صورة ذات مضمون اجتماعي في الغالب الى صورة فكرية ذات مضمون ميتافيزيقي متغرب عند سركون بولص وخالد يوسف ، ومضمون وجودي كينوني صوفي احيانا عند طهمازي ،ومضمون مأساوي راعب عند العزاوي .

ثالثا ، اما الموسيقى فانهيارية ، ذات بناء دراماتيكي نازل ، والايقاع ايقاع يابس . فالشكل والوزن لم يعد الا وعاء خارجيا غير ذي بال . ويلعب التجريد دوره في الموسيقى الشعرية ، عند طهمازي خاصة ، حيث يختزل الانسياح الفكري المتتابع ، والتفسير احيانا ، عذوبة الانسياح العفوي الذي رفع كثيرا من غنائية القصيدة عند البياتي وعند رشدي العامل خاصة .

رابعا ، استمالة التراث استمالة طوعية صميمية تقف بالنسبة للشاعر عند الاستفادة من الخبرة ، كما يقول طهمازي . والتراث « وعي بالذاكرة دون ان يطالبنا بالموت فيه ».

خامسا ،تشهد خارطة القصيدة توزيعا «جغرافيا» جديدا للاشطار ، عند مؤيد الراوي وقحطان المدفعي . ومهما كانت دوافع هذا عند الشاعرين ، فانها على العموم عسيرة الفهم ومستحيلة القراءة احيانا .

سادسا واخيرا ، هذه « الانية » التي يؤكد من خلالها الشاعر حسه المتفرد بالمأساة وهو يقف وحيدا ، مواجها الكون والموت ، واللحظة التي لن تجيء ، طارحا اسئلته التي لا جواب لها غالبا . ومن هنا اوجد « قيمه الخاصة غير المشروطة » ، الا بعلاقة كينونة دموية ، هو الخاسر فيها ابدا .

ملاحظات عن القصة

الجزائر . كتب لن اورتزن :

سأتحدث في هذه « الرسالة » عن ثلاثة كتب ظهرت مؤخرا بالفرنسية لادباء عرب من شمالي افريقيا .

منذ اغتيال الكاتب الجزائري مولود فرعون ، اصبح عميد ادباء شمالي افريقيا الذين يستعملون اللغة الفرنسية اداة للتعبير عن انفسهم ، محمد ديب — الذي ولد في مدينة التلمسان في الجزائر عام ١٩٢٠ . نشر ديب اول مؤلفاته «البيت الكبير» في ١٩٥٢ ، واضاف اليه منذ ذلك الحين خمس روايات اخرى ومجموعتين من القصص القصيرة ومجموعة شعرية . وبمرور السنين تبدل اسلوبه كثيرا : فهو لم يعد ذلك الاسلوب البسيط المباشر الذي اتسمت به مؤلفاته الاولى ، بل اضحى معقدا يحاول فيه الوصول الى اعطاء تأثيرات انطباعية — كما في روايته السابقة «على شاطىء مهجور» (التي تحدثت عنها في «حوار» ١٣) . كما انه تطور من وصف حياة العمال المحرومين من ابناء وطنه ، وصفا مسهبا ، الى عرض رؤيا ورمزية شعريتين تشملان الانسانية كلها . وقد صدر له الآن كتاب جديد بعنوان « الطلسم » ، وهو يعود فيه الى القصة القصيرة ، والى التعرض لوصف حياة ابناء شعبه الذين عاش بينهم وعرفهم عن كثب . وتعكس القصص التسع في هذا الكتاب سائر الاساليب التي استعملها في كتبه الاخرى وتقدمه للقارىء كاتبا واقعيا وصاحب رؤيا شعرية في الوقت ذاته .

والواقع ان القصص القصيرة هذه تمثل نتاجه بكامله ، وهي مطبوعة بوضوح بطابع موهبته الاصيلة المبتكرة . اما القصص ذاتها فمجرد احداث ، ولحظات من الزمان : فقصته « الهدف » مثلا تروي حكاية دليل يقود رجلا عبر بقعة من الارض يحتلها العدو كيما يتمكن من العودة الى قريته الاصلية ، وعندما يصلها يجد ان السكان قد هجروها ويجد

جميع ابوابها ونوافذها مقفلة . وتدور احداث قصة « اختفاء نعيمة » في بلدة ابان حرب : لقد اعتقل العدو زوجة احد الرجال،وانقطعت عنه اخبارها، فيعول بعد كثير من التردد على الاشتراك بنفسه في القتال ، لذكراها . اما قصة « النهاية » فهي عن مستوطن فرنسي في البلاد ، كان يملك مزرعة كبيرة ، وكان يعتقد ان العمال العرب في مزرعته لن يتركوه قط ليلتحقوا بقوات التحرير المعتصمة في الجبال ، ثم تجيئه لحظة الحقيقة .

جميع قصص الكتاب بسيطة زهيدة كقصص . لكن فيها عوامل اخرى كثيرة تجعلها حرية جدا بالقراءة: كالبراعة في خلق الجو والايحاء به،والنقاء الذي تتميز به اللغة،والتبدل الفجائي في الاسلوب ، واهم من هذا كله روح الرفق والحنان البالغ الذي يبديه المؤلف نحو مواطنيه العرب ونحو بلادهم، بلاده .

وفي لغته اقتصاد في التعبير، مما يذكرنا بان محمد ديب يسيطر بلا شك على المواد التي يكتب عنها . ويتجلى هذا في بدايات جميع قصصه تقريبا ،حيث ينجح في عرض المشهد وفي خلق الجو في الحال . مثال ذلك ، بداية قصة « النهاية » :

« وصل السيد البير وعلى وجهه اماثر اسى بالغ. لقد ذهبوا ياسيدي ! لقد تركوا المزرعة جميعا ! نسي ان يحيي صاحب المزرعة بالتحية العسكرية التي كان يحييه بها على الدوام .

« وفهم جان برون في الحال-لقد انضم موظفوه الى الآخرين وذهبوا الى الجبال ، هم ايضا .

« ماذا ؟ جميعا ؟

« جميعا ، ردد الموظف .

« احسّ جان برون بغضب على نفسه لانه طرح ذلك السؤال . لقد كان يتوقع شيئا مثل هذا لمدة من الزمن . لكنه لم يكن يدور بخلده قط بان النبأ سيأخذه على حين بغتة كما فعل . كان يعتقد انه حالة استثنائية ، وانه لا هو ولا مزرعته سيتأثر بزمان الاضطراب هذا ... »

اما بداية قصة «هذا الذي يجمع كل شيء،حسن» فذات اسلوب مختلف ، وهي قصة تقوم على تصوير شخصية رجل خبيث هرم :

« لعن الله قرموني الهرم ! لا بد انه ، في هذه اللحظة ، يعقد صفقة مع الشيطان يبيعه بها روحه. حتى في الجحيم ، الذي اتأكد انه قد ذهب اليه ، لا بد انه يحاول ان يستغل الموقف – وهو موقف جديد بالنسبة اليه ،لكن ليس موقفا لم يكن يتوقعه. ولا شك ابدا في انه سينجح،بشكل من الاشكال– ان لم يكن قد نجح فعلا بعد ! ان بلدتنا لم تعرف قط تاجرا ومتعاملا بالسوق السوداء اكثر منه دهاء ، وبلدتنا لم تشك قط نقصا في حصتها من التجار والمتعاملين بالسوق السوداء الدهاة ... »

تدور احداث غالبية القصص في زمان حرب– هي بالطبع حرب الاستقلال في الجزائر . لكن العطف الذي يبديه المؤلف نحو اشخاص اقاصيصه يشمل جميع اشخاصها الذين امتدت اليهم يد الحرب وما تحمله من اهوال. ويمكن ان نأخذ قصصه «الحربية» على انها تدور في اي مكان آخر تدور فيه حرب . وهذه الاسطر من قصته « اختفاء نعيمة » تبعث جوا اصبح للاسف مألوفا لدى اهالي عدد كبير من الاقطار في السنوات الثلاثين المنصرمة.

« ما زالت رحى الحرب تدور،وقد تظل تدور عدة سنوات بعد . ولا يستطيع انسان ان يتصور اليوم كيف تكون الحياة بدون صوت الانفجارات والرصاص المتواصل . ان اخبار الفظائع تتهامسها الشفاه . واكاد لا امشي في الشوارع بدون ان التفت خلفي مرارا ، بدون ان اكون على استعداد لان ارمي بنفسي واتسطح على الارض اذا ما القيت قنبلة يدوية او انفجرت قنبلة. واذا لمحت اية اشارة اشتبهت فيها ، احترست لذاتي . اذا ما ترك المرء بيته مرة ، فانه لن يكون واثقا من انه سيعود اليه حيا ...

« كيف سيكيف اولئك الذين سينجون من الحرب انفسهم مع الحياة ؟ ماذا ستعني لهم عودة السلام ؟ ان العالم بالنسبة لنا قد فقد مذاقه ولونه. كيف سيتمكنون من اعطائه وجها بشريا من جديد ؟ »

ان في قصص محمد ديب عالية وشمولا يسبغان عليها العمق.ومع ان اشخاصها عرب الا انهم مثال للناس في كل مكان،وخاصة لابناء الشعوب المضطهدة

والمحرومة . وقد تكون القصة القصيرة افضل الوانه الادبية للتعبير عن آرائه في الحياة ولممارسة فنه .

وصدرت ايضا في الاشهر الاخيرة مجموعة قصصية لكاتب جزائري شاب ، إختار القصة القصيرة لونا يستهل به حياته الادبية ؛ ومجموعته هذه ، التي اعطاها عنوان «سلك من الرؤوس» تظهر بوضوح ان المؤلف، فاروق زهار ، يعد بمستقبل ادبي باهر. تضم المجموعة اربع قصص قصيرة وواحدة طويلة — وهذه الطويلة كانت لتبدو افضل جدا لو انها كانت في قصر القصص الاخرى . واذا كان المؤلف لم تزل تنقصه القوة في مطلع حياته الادبية ، فان اسلوبه ممتاز ومتمكن وكتاباته تتسم بطابع اصيل لا شك فيه . وقصصه قصص فعلا ، وليست مجرد دراسة لشخصيات ؛ وهي اشبه بقصص الخرافات العلمية ، لكنها مبطنة بموضوع القلق الذي يتميز به يومنا هذا وعصرنا هذا ، مما يجعلها قريبة في جوها الى قصص كثير من الكتاب الشباب في اوربا. فاحدى هذه القصص ، « كبد ايفرون » ، مثلا ، هي عن سوق يجري فيها بيع اعضاء الجسم البشري واستبدالها :

« ما زلت شابا (كما تقول لي مرآتي وحسب قول الناس وتذكرة هويتي) ولم اشعر حتى الآن انه من الضروري ان ابدل اي عضو من اعضائي . وليس هذا لانه ينقصني المال . غير اني نسيت ان آخذ بعين الاعتبار اثر المشروب على كبدي . لكني قلت لنفسي انه اذا ساءت الامور فعلا ، فما عليّ الا ان اخرج السيارة واتوجه بسرعة الى السوق . الا ، بالطبع ، اذا صدف ان كان اليوم يوم اثنين: فالسوق تقفل ايام الاثنين ، كما يفعل اللحامون .

«وربما اني استيقظت هذا الصباح ابكر من عادتي وليس لديّ ما افعله ، فاني ساذهب لزيارة هذه السوق ، فان طاب لي اشتريت لنفسي كبدا جديدة ...

«ظننت انها ستكون سوقا حرة مفتوحة للجميع، كسوق الماشية التي كانت تعقد اسبوعيا في قريتي . لم اكن قد حسبت حساب وجود هذه العجوز التي تجلس في كشك كالكشك الذي يجلس فيه قاطعو التذاكر في دور السينما . سألتني في الحال : ما رقم تذكرتك ؟

« رقم ؟ تذكرتي ؟

« اذاً فانت لم تتسجل ؟

« اي خيبة امل ! فكيما ادفع ثمن تبديل كبدي ، يبدو ان عليّ ان اذهب اولا واسجل في مركز البلدية . وان ادفع الضرائب، بالطبع ، واشتري طوابع اميرية ، واقف في صف بانتظار الاوراق الرسمية المختلفة الانواع — وان انتظر الى ان يجيء وقتي ، بعد ستة اشهر على الاقل .

« ولم انتظر لأسمع أكثر من ذلك » .

وفي النهاية ، يبذل جهده لان يجد شخصا ما يساعده على الاسراع في القضية . وعندما تتوفر له التذكرة ويصل السوق يجد ان الناس ما يزالون واقفين وانهم يعرضون الرشوات كي يسبق واحدهم الآخر .

ويوطد فاروق زهار عامل القلق والترقب والانتظار الدرامي منذ الجملة الاولى لمطلع كل قصة من قصصه . تبدأ احدى قصصه هكذا :

« كانت قد قالت انها مرهقة جدا .

« لا بد انها قد نامت الآن . فالظلام يخيم على الغرفة منذ اكثر من ساعة ، ولم يصدر عنها اي صوت . لم تكن ببالي اول الامر اي نية اطلاقا ان انام معها ... »

وتبدأ قصة اخرى هكذا :

« ها انا اتتبع السور الكبير الذي يمتد من سيدي اديب الى بير ابو ، اطول من اربعين ميلا ، واسرع في سيري اذ ان عاصفة تتوعد بالهبوب. شيء أشبه بالموكب يتقدم نحوي، ولو انيلا استطيع بعد تمييز ما الذي يحتويه . فأغذ سيري اكثر ، وسرعان ما اتبين جماعات تتكون كل منها من ثمانية رجال او عشرة يسيرون واحدا خلف الآخر ... قطرات كبيرة من المطر تبدأ بالتساقط ، فاوقع ياقتي. واجتاز الجماعة الاولى — ثمانية وجوه هزيلة، وجميع الرجال يحملون سلما طويلا جدا ، وكلهم الى ذات الجانب منه، سلما طوله بين ثلاثين واربعين ياردة ! واجتاز تحت المطر المنصب عشرات من السلالم الطويلة ، والى جانب كل منهما سلك من الرؤوس » .

يكتب فاروق زهار جميع قصصه بضمير المتكلم وبصيغة الفعل الحاضر ، وهذا بالطبع يزيد من الاحساس المباشر بها ويقوي العامل المسرحي فيها. الا ان المتكلم يختلف في كل قصة عنه في سواها ، وهذا يؤدي الى شيء من الاضطراب والفوضى في ذهن القارىء. اضف الى ذلك ان بقية الاشخاص يصبحون وكأنهم ليسوا الا رموزا .

والواقع ان العجز عن خلق شخصيات قصصية متكاملة طابع يميز هذين الكاتبين ويميز ايضا الكاتب الثالث الذي سأتعرض لآخر نتاجه في هذه «الرسالة». فاذا كان ديب وزهار كاتبين ذهنيين بالدرجة الاولى، واذا كان الادب الذي يكتبانه ادبا تجريديا ، فان اديبنا الثالث ، كاتب ياسين ، يجاريهما في ذلك والى حد اكبر . وكاتب ياسين ظاهرة فعلا . فكتابه الجديد ، شأنه في ذلك شأن كتبه السابقة، لا يشبه اية رواية كتبت قط – في اية لغة اوربية ، على الاقل .

يقول المؤلف ان روايته الجديدة « المضلع ذو النجوم » هي جزء من اثر ادبي ما برح يعمل عليه منذ عشر سنين ، ويشمل هذا الاثر كتبا سابقة له من بينها اولى رواياته « نجمة » وثلاث مسرحيات نشرت معا وبعض شعره . ولعل رواية « نجمة » هي اول رواية حديثة وضعت بالفرنسية او باية لغة اوربية اخرى ولا تزال في جوهرها عربية من حيث الفكر ومن حيث البناء والتركيب . بل ان هذا وصل درجة حملت الناشر على الاعتقاد بان من حق القارىء الاوربي عليه ان يضع في اولها مقدمة ينبهه فيها الى ذلك. والكتاب يتحرك للامام والخلف من حيث الزمان ، ويقفز من طائفة من الاشخاص الى طائفة . ويستعمل كاتب ياسين التكنيك ذاته في روايته الجديدة ، والى حد اكبر، غير ان الناشر لا يضع في اولها مقدمة تنبيهية ، لهذا فان القارىء الذي يتناولها دون اطلاع سابق على نتاج المؤلف لن يعود منها بالكثير ان القارىء الاوربي قد اعتاد على « الرجعات الزمنية » في الروايات ، غير ان هذه الرجعات تكون مرتبطة بزمن حاضر واضح تجري الاحداث والتطورات الرئيسية فيه ـ كقطار يتحرك ذهابا وايابا على طول خط حديدي مستقيم. الا ان « المضلع ذو النجوم » اشبه بقطار يتحرك باستمرار على خط حديدي دائري . فبمقدور القارىء ان يفتح الكتاب في اي جزء منه ، في الصفحة ٥٠ او في الصفحة ١٠٠ مثلا . ويقرأ ما تبقى من الكتاب ثم يعود الى قراءة الصفحات الاولى التي اهملها قبلا، ويصل الى النتيجة نفسها. – وان يحظى بالمتعة ذاتها. والواقع اني بعد ان قرأت الكتاب بكامله حسبما جرى طبعه ، حاولت ان اقرأه كما لو انه قد طبع باللغة العربية – اي اني اخذته من آخره (بالمعنى الاوربي) ورحت اقرأه خلفيا وعودة الى آخره، (اي الى اوله)، ست صفحات كل مرة. والحق انه اعطاني تقريباً ما أعطاني عندما قرأته بالشكل «المضبوط» ، وكانت متعتي به تكاد تكون هي هي. لكن ما موضوع الرواية ؟ الجواب باختصار هو : الجزائر. وسيكون بوسع القارىء ان يفهم الكتاب افضل ان هو قرأ رواية « نجمة » قبل قراءته له . وبعض اشخاص « نجمة » ، بمن فيهم نجمة ذاتها ، يظهرون هنا من جديد ، ونبض الجزائر يخفق من جديد في كافة صفحات هذا الكتاب ، الذي كتبه المؤلف ببراعة وروعة .

فهنا نجد نجمة – « عندما يراها المرء تقترب اليه ، يحس باحساس قوي ، بانها تجتاز حقل الغام ، بين معسكرين خصمين، وانها لا تزال تزرع المشاكل والاثارات ، وتبدو كأنها ضائعة في حلم خبيث ... » وهنا الجزائريون يبحثون عن عمل في فرنسا : « في المصانع تحتاج الى اوراق تثبت انك لست عاطلا عن العمل ، وتحتاج الى المجيء كل يوم للسؤال، فقد اعتادوا على رؤية الجزائريين ينتظرون عند البوابات . انها طريق طويلة . في تلك الايام، كان على العاطل عن العمل ، الحي الضمير ، ان تكون له دراجة وملابس لا يحدونها هم منفرة . وكان عليه ان يصغي اليهم وهو يمر مرة بعد مرة امام مكاتبهم ، وهو يخبىء شعره المجعد ، وعدد اطفاله ، والامراض التي تعرض لها ، لانهم يخشون ان يدفعوا مبالغ كبيرة اسهاما منهم في الضمان الاجتماعي».

لقد اصبح اسلوب كاتب ياسين اسلوبا سريعا ،

عصبيا ، متململا – كأنه قد فرغ صبره ويريد ان يسجل كل شيء . ونراه يقفز من مشهد الى مشهد ، ويترك للقارىء ان يقيم هو الجسر فوق الفجوة ما بين المشهدين :

« تقدم الاخضر والقى عليه التحية . اجابه الآخر بالعربية . الامور تسير سيرا حسنا . تعتاد عليها في النهاية . سنأكل معا ، بالطبع . اجل ، من المنطقة ذاتها ... هنا ؟ قنديل ، طنجرة من صفيح ، وكرسي . جلس الاخضر على السرير ، وابتلع ثلاثة ارباع الراتب الزهيد ، وراح يغني حتى منتصف الليل .

« قال شريف : نم في غرفتي . ما علينا الا ان يدفع كل منا مائتي فرنك في الاسبوع . قبل ان تغرق في النوم اكتب رسالة الى امي نيابة عني . اجعلها تدرك ان النقود هنا لا قيمة لها ، قيمتها هنا اقل حتى من قيمتها هناك . لا استطيع ان ارسل لها شيئا في الوقت الحاضر . اخوة واخوات . قل لها انني سأتزوج في القرية يوما ما . لكن ليس الفتاة التي اختارتها هي . نحيفة جدا . لا ، لا تكتب ذلك . اعمل جهدك ان تطيل الرسالة قدر المستطاع » .

وتتخلل مشاهد الرواية قصائد ، وانباء من الصحف ، وترجمة وجيزة لابن خلدون – بل ، في وسط الكتاب ، ومسرحية هزلية نقدية قصيرة عن غزو الفرنسيين للجزائر في ١٨٤٠ . انها « كولاج » فعلا . لكن الانطباع النهائي الذي يبقى في ذهن القارىء هو عن كتاب يعج بالصور الخيالية والافكار والاحداث الرمزية . لكنما تنقصه السيطرة والتنظيم .

يبدو ان قسما كبيرا من الاحداث القصصية في الكتاب قد استمدها المؤلف من اختباراته الخاصة . ولد كاتب ياسين في منطقة قسطنطين في الجزائر في شهر آب (اوغسطس) ١٩٢٩ ، ودرس في صطيف . وعندما كان في السادسة عشرة من عمره اعتقل لاشتراكه في مظاهرة ضد الفرنسيين ، وقضى عدة اشهر في السجن . وذهب الى باريس وهو في الثامنة عشرة ، وبعد عام نشر قصائده الاولى في مجلة ادبية فرنسية . واصبح في العام التالي مراسلا لاحدى الصحف الجزائرية ، وتجول في انحاء الشرق الاوسط . وبعد وفاة ابيه عام ١٩٥٠ القيت على كاهله مسؤوليات عائلية ، وصرف وقتا صعبا يعمل اعمالا متعددة لا تحتاج لمهارة – فكان عاملا في احواض السفن في الجزائر ، وعاملا في مزرعة ، وعاملا في ورشة بناية ، في فرنسا . وكان عليه ، شأنه في ذلك شأن كثيرين سواه من الكتاب العرب الشبان في فرنسا (بل وكثير من الكتاب الشبان في كل مكان) ، ان يتهن اعمالا تافهة صغيرة كيما يحصل معيشته ويتمكن من الاستمرار في الكتابة .

ولا شك انه اكثر الكتاب الجزائريين الذين نشرت آثارهم في فرنسا جزائرية . اقصد بهذا ان رواياته ومسرحياته وقصائده لم تكن لتوجد في شكلها الحالي لو ان الجزائر لم توجد في شكلها الحالي ولو ان التاريخ الحديث لشعبها اتخذ مسارا آخر . ان بامكاننا ان ننقل ، في مخيلتنا ، احداث وشخصيات الروايات الاخرى التي كتبها مؤلفون عرب ، ان ننقلها الى بلدان اخرى ، ان نتخيلها تحدث في الباكستان مثلا ، او في قطر خيالي . الا ان هذا مستحيل في حال كاتب ياسين . ذلك لان الاحداث التي يرويها والشخصيات التي يتحدث عنها ، بل لان كتبه ذاتها ، كانت والحالة هذه لتخسر تماما عنصر الصدق الذي تعمر به .